قطعة الحلوى

قصة بقلم مظفر سلطان

لم يكن الليل الجهم قد حط على المدنية بعد ، اما في غيابة القبو الرطب ، الذي تقطنه الأرملة الغسالة ، وابنها الوحيد ، فقد هبط منذ ساعة .. وساعات بل انه فيه دائماً .. ليل نهار .. كعامل خامل ، ما يكاد يلفظه الضجر منه الى الشارع ، حتى تعيده البطالة والسآمة اليه .

ومن يكون هذا العامل المتبطل الا رب البيت نفسه .. فقد كان حوذياً ماجحاً ، ثم ادمن الخمرة ، فباع العربة وجواديها الى اجيره الذي كان يقاسمه العمل عليها والارتزاق منها . ثم اسرف في ادمان الخمرة ، والشجار مع الناس ، ومع اجيره — الذي غدا سيده — وسرق بعض المبالغ الزهيدة ، فطرده اجيره من العمل ، بعد أن تشاتما وتضاربا . وسجن على اثرها اياماً .. ثم اصطلحت عليه رطوبة القبو العفنة ، ولسان زوجه الناعب ، وسوء الغذاء ، ووسم الشراب ؛ فقضى نحبه ذات ليلة مخلفاً زوجه المعروقة وابنه الدميم ، لأقدار كانت على قسوتها — ابر منه وأكرم ..

ولم يكن في القبو المظلم يوم لفظ انفاسه الأخيرة قرش واحد .. ولولا نفر من متشائمي اهل الحي ، وانهم يخشون ان تنتن جيفته ، لبقيت حيث هي ، على فراشها القذر ، في ركنها المظلم ..

وبدأ القبو المظلم يودع اكداساً من ثياب الطلاب وبعض العمال ، ليستقبل اكداساً غيرها اقذر واضخم .. والقت ارملته — التي ذاع انها لم تذرف على فقيدها دمعة واحدة — الفت ان تقعي سحابة نهارها ، واطرافاً من ليلها ، امام طست الغسيل الخالد .. توبخ ابنها الشرير — خليفة ابيه — بحنق ، وكأنها تعركه في قطع الثياب القذرة المتعاقبة على يديها المهترئتين ، وتنعي حياتها الضائعة اثر زوج عاق خاسر ، وولد منه اعق واخسر .. وكيف لا يكون كذلك وقد طردته المدرسة مرة بعد مرة .. ثم طرده كل ارباب العمل الذين دفعت به اليهم على التعاقب ، لكذبه وخبثه وسرقاته .. والغسيل قذر دائم لا ينتهي ولا يكف .. ولا امل الا بالموت الأصم الأبكم الذي لا يسمع ولا يستجيب ..

كانت سمراء شمطاء ، طويلة القامة ، وافرة العظام كهراوة قديمة ذات عقد .. يداها مهترئتان ابداً .. وعيناها عاشيتان .. وشعرها فضلات قصيرة منفوشة من خيوط سود وبيض والوان اخرى كالتي تراها في دكاكين الخياطين وسحنتها مكفهرة ناقمة حتى في لحظات صفائها ، فاذا ما بدا لها ان ترحب بضيف لم يرها قبل اليوم خيل اليه انها تنهره وهي انما ترحب به وتحييه ..

اما همومها .. فلم يبق لها من هم يذكر بعد موت زوجها السكير ، الذي كان يسرق بعض نقودها او كلها ، فينفقها في الخمرة .. الا ايجاد عمل لابنها — ابن الكلب — كما كانت تدعوه حتى في اوقات سماحتها ورضاها عليه ، والا ازاحة اكداس الغسيل الى ألسنة الشمس في الأرض الخراب المجاورة .. ثم اصبح لها هم جديد ، مقعد ومقيم ، حينما بدأ صاحب الملك يداورها في اخلاء القبو ، متذرعاً بحاجته المبرمة اليه ، وهو في الحقيقة انما يريد ان يؤجره الى البقال المجاور بأجر مضاعف .

فاذا ما فتر غضبها على ابنها ساعة ، وتمثلت المآلك التي صاحب القبو ، وكل الدور التي تعلوه وتجاوره ، تمثلته كذلك في قطع الثياب القذرة التي بين يديها ، وراحت تعركه عركاً محنقاً لا هوادة فيه ، وهي تلاحيه ، وتشتمه بصوت مسموع قائلة : — ابن الكلب .. المجرم .. الخاسر .. ابو كرش .. انه يريد ان يلقي بي انا وابني اليتيم على قارعة الطريق ليزيد هو من ثروته التي لا تعد ولا تحصى .. انه يهددني بالقانون ، والحكومة ، والشرطة .. الا ليته يفعل .. ووالله لئن دخل هذا القبو احد من الناس ، لأمزقنه بأنيابي هذه — وتصر على اسنانها في غل وحشي .. — ولأفقأن عينيه بأصابعي هذه — وتنشب أصابعها الطويلة في قطع الغسيل من جديد ، فاذا هي تصوت ، وتمج الزبد الأسمر القذر ..

وابنها .. ابن الكلب الحقيقي .. انه بوجهه الدميم كوجه نسناس مريض وعينيه الحبيبتين ككذبتين دائمتين .. وشعره الاشعث كاعشاب حديقة مهجورة وثوبه الممزق .. الذي مزقه بالأمس عمداً لتشتري له ثوباً آخر جديداً للعيد الوشيك .. انه جالس قبالتها على درجة القبو السفلى منذ ساعة يبكي ، او يتظاهر بالبكاء ، ويرجو ويتوسل ، ثم يعود الى التباكي او البكاء ، في طلب قطعة فضية صغيرة ، آلى ، الا ان يغتصبها منها هذه الليلة ، وآلت الا ان تضن بها عليه ..

وللمرة العاشرة او العشرين ، قطع بكاءه او تباكيه واقبل يلح عليها في طلب القطعة الفضية نائحاً :

— اماه .. اتوسل اليك .. اعطيني ربع الليرة .. أنا جائع ..

— قلت لك مائة مرة اذا كنت جائعاً حقاً ، فدونك الطعام في النافذة ، فقم اليه ، فتناوله .

— وأنا قلت لك مائة مرة انه طعام كريه لا احبه .. اريد ربع الليرة .. انا جائع ..

— وما تشتري بها ؟ ..

فأخذته فرحة السؤال .. فانزلق لسانه فقال :

— قطعة من الحلوى .. من الدكان الجديدة التي افتتحت في اول الشارع منذ ايام .. كل الأولاد يشترون منها ، و ... فطاش صواب الأم ، واطبقت براثنها على ثوب قذر ، وهو الأخير ، كان بين يديها وصاحت :

— حلوى .. وتريد ان تشتري حلوى ! .. وهل الحلوى طعامك يا ابن الكلب .. ام تراك شبعت الخبز حتى تنشد الحلوى ! .. الحلوى طعام الأغنياء يا خاسر ، طعام ابن صاحب القبو الذي يريد ان ينتزعنا منه ، ويلقي بنا على وحل الشارع .. قم وخذ ثمن الحلوى من المال الكثير الذي خلفه ابوك الشقي .. لم يمت الكلب العقور الا بعد ان خلف لي الجرو الأجرب .. والله لو رأيتك تموت امامي الساعة ما اعطيتك قرشاً واحداً ايها الخنزير ..

ولم يبد على الغلام انه وعى شيئاً من كلام أمه .. وهو في الحقيقة لم يلق باله اليه اطلاقاً .. ولم يع منه حرفاً .. ان خياله اللهيف كان يطير كل لحظة الى الدكان الحديثة الأنيقة التي افتتحها صاحبها في اول الشارع ، ويحوم كالنحلة

الظامئة على قطع الحلوى الشهية التي نضدها من واجهة المحل في نسق فاتن يستصبي الزاهد ويستدر اللعاب .. وانكى من ذلك وامعن ، انه كان يرقبها منذ ساعة مع زميله محمود .. وان محموداً طار الى امه وظفر منها بالثمن ، وعاد فابتاعها وراح يلتهمها في لذة مبكية .. حقاً .. فقد كادت دموعه تطفر بدون جدوى ..

وفاضت دموعه من مقلتيه سخية صادقة هذه المرة ... وخالسته امه النظر وهي تعصر الثوب الأخير الذي بين يديها ، ورقت لبكائه الحار ، فقالت توبخه بصوت ارق هجة ، ولعله يبشر بالخير :

– قم ايها الحنزير .. فاوصل هذه الثياب الى الطالبين اللذين يسكنان سطح المنزل المجاور .. واثت منهما بالأجر .. وسأمنحك ثمن قطعة الحلوى . ولكن اياك ان تشتريها قبل ان تعود الي بالأجر كاملا ...

– وحملته الغسيل النظيف المطوي على ذراعيه الممدودتين ، ورافقته الى الباب وهي تقول :

– ليرتان سوريتان ، ولا اقبل بقرش واحد نقصاً .. أفهمت ؟هات المبلغ وعد به الى كاملا وانا اعطيك ثمن القطعة .. اياك ان تتأخر .. اياك ان ..

ولم تمض دقائق حتى عاد اليها كالسهم المارق .. او ككرة جيدة من المطاط .. تدفع بقوة .. فتعود بسرعة دفعها .. بل بأسرع ؛ وفي يده المبلغ المطلوب غير منقوص ، وفي عينيه نور ظافر ضاحك ، وعلى شفتيه تتهادى قطعة الحلوى الموعودة ...

وكانت امه تحسب حساباً لكل شيء .. وكانت تخشى ان يعود اليها بالليرتين المطلوبتين قطعتين صحيحتين ، فتضطر ان تعطيه احداها ، فيمضي بها الى السوق ، ويعبث بها انفاقاً وتبذيراً كما فعل في مرات سابقة .. وكانت قد انتهزت فرصة غيابه ، ومضت الى الركن الخفي الذي تخبىء فيه نقودها ، فاخرجت له قطعة فضية صغيرة ، وغيبتها بين ثدييها ، لتحلف له انها لم تكن تملك غيرها .. اما هو فقد لقف القطعة من يدها مستطاراً ، غير مدرك ما قالته ولا ما زعمته ، وانطلق بالمهر الكريم الى العروس الغالية ..

ولعل لقاء زميله محمود في بعض الطريق كان يستهويه في هذه اللحظة اكثر مما كانت تستهويه قطعة الحلوى .. اين هو فيرى القطعة الفضية اللامعة في يده .. ثم يراها في يد البائع .. ثم يرى قطعة الحلوى تنتقل من اريكتها العزيزة اليه .. ثم يراها .. ثم يراه ..

وتلكأ في بعض الطريق عله يرى محموداً او يرى من يدله عليه .. ولكن محموداً غائب ولا اثر له في كل الزوايا والمنعطفات ..

وفي احد المنعطفات ، وعلى الرصيف البارد ، وتحت مصباح الشارع الخالي ، بصر بامرأة معدمة تستجدي ، ومن حولها اطفال صغار يتضاغون ، وهي تسأل الناس الصدقة بصوت كسير حزين وان ، والناس لا يمرون من هذا الرصيف ، او يمرون فلا يتنبهون ، او ينتبهون فيتصامون ويعرضون ..

– حسنة لله يا اسيادي .. حسنة لهؤلاء الايتام الجياع يا اسيادي ..

وقرعت اذنيه كلمتا : ايتام وجياع .. بصوت غريب لا عهد له بمثله من قبل .. ووقف يتأملها ويتأمل اطفالها المتضاغين ، ويرهف اعماقه لهذا الصوت الكسير الحزين الواني :

– حسنة لله يا اسيادي .. حسنة لهؤلاء الأيتام الجياع يا اسيادي ..

ايتام وجياع ! .. انه لكذلك يتيم .. ولكنه ليس جائعاً .. فقد كذب على امه مدعياً الجوع ليفوز منها بالقطعة النقدية .. انهم ايتام .. وانه يتيم .. وانهم جياع .. اما هو فيستطيع ان يعود الى القبو . ويتناول الطعام الذي ينتظره في النافذة ... وقد كذب ايضاً حين زعم لامه انه كريه .. وانه لا يحبه .. انهم ايتام جياع محرومون .. وانه ليتيم منبوذ يحتقره كل الناس .. ويشتمه كل الناس حتى امه التي تدعي حبه والحنو عليه في بعض اللحظات العابرة ..

وبكى الرضيع الذي يرقد في حجرها بحرقة .. وبدا وجهه الصغير من خلال الأقمطة كورقة شجر جافة .. فاخرجت المسكينة ثدياً هزيلا فارغاً ككيس من خرق رثة فألقمته اياه .. فلقمه الطفل متضاغياً لحظات ، ثم عافه ، وملأ فاه الفاغر ببكائه الحاد مرة اخرى ..

واقبلت عليه امه تحدثه نائحة ، وهي انما تحدث نفسها ، أو تحدث قدرها فتقول :

– الم تجد فيه شيئاً ايها المسكين ؟ .. الم تجد فيه قطرة من لبن .. وكيف يعقل ان تجد فيه شيئاً وانا لم اتبلغ بلقمة منذ الصباح .. الا ايتك تموت ايها المسكين الجائع الذي لا يجد من يرحمه او يتصدق عليه .. حسنة لله يا اسيادي حسنة لهؤلاء الايتام الجياع يا اسيادي ..

ولم يكن الغلام فيما سلف من عهده يفكر فيما يصدر عنه من افعال تفكيراً مركزاً ولا واضحاً .. وما هو الا ان يعن له امر من هذه الأمور التافهة التي كان يفعلها او يقترفها حتى يمد يده او تنطلق به قدمه اليه .. كاظفر الشرير تراه حيناً ممدوداً على الأريكة ، وتراه حيناً آخر يلتهم قطعة من الجبن مختلسة تحت احد المقاعد .. اما الآن .. فلعله ، بل انه لم يفكر اطلاقاً ، ولم يع ما يصنع .. انما احس في اعماقه بذل وحزن وخوف غامر .. وبحاجة مبهمة الى البكاء .. والى الحماية .. وبغير انتباه منه ولا وعي ولا ادراك ، وجد نفسه يتقدم الى السائلة النائحة ويضع في يدها القطعة الفضية ، ويمضي في طريقه لا يلوي على شيء ..

اين محمود ؟ .. كلا .. انه لم يعد يرغب في لقائه .. اين حانوت بائع

لجنة التأليف المدرسي

تقدم افضل الكتب التوجيهية والتربوية

المروج : ستة اجزاء في القراءة العربية

كيف اكتب : اربعة اجزاء في الانشاء العربي

الجديد في دروس الحساب : خمسة اجزاء

حسابي : جزءان للاطفال

الجديد في دروس الاشياء : اربعة اجزاء

الجديد في قواعد اللغة العربية : اربعة اجزاء

الجديد في الخط العربي : خمسة دفاتر

التعريف في الادب العربي : جزءان للمدارس الثانوية

J'apprends le Français

ثلاثة اجزاء في القراءة الفرنسية

اطلبها من دار المكشوف ، ودار بيروت

ودار العلم للملايين، ومكتبة انطوان ، ومكتبة لبنان

الحلوى ؟ .. انها هناك .. في اول الشارع .. وعلى قيد خطوات منه .. تشع بكل انوارها .. وبكل مفاتنها .. وبكل حلواها .. ولكنه لا يريد ان يبلغها. وفيم يبلغها ؟ .. وقد خسر في طرفة عين ما يسمح له بدخولها بغير نهر ولا طرد..

وقد باغته صنيعه مباغتة جعلته يرتعد ويقف مشدوها ذاهلا ، كشأنه هو نفسه ، وقد كان يمسك عصفوراً جميلا تعب في صيده ، وقبض عليه بعد لأي.. ثم افلت العصفور من يده بغتة وطار ..

أجل .. فقد افلت العصفور الجميل من يده وطار .. فلخير له ان يلوذ بالمنزل .. والفراش قبل ان يراه محمود فيشمت به مرة اخرى .. الا سحقاً لمحمود .. ان الذنب ذنبه بلا ريب .. وان التبعة كلها تقع عليه .. لو انه كان قد رآه في طريقه لما وقف يتأمل السائلة المسكينة وابنها الباكي .. ولما ارتكب هذه الحماقة الكبرى .. ولمضى في طريقه الى الدكان المتألقة ولاشترى قطعة الحلوى كما اشتراها هو .. بل لكان انتقى قطعة ابهى من قطعته واشهى و.. و ..

وبلغ القبو ذليلا منكس الرأس ككل مرة يرتكب فيها هفوة او يقترف ذنباً .. ولمحت امه بوادر الأسى والاستعبار في ملامحه، فادركت انه قد فقد القطعة الفضية بطريقة من طرائقه الرعناء المتكررة .. واستجوبته .. ثم صبت عليه وابلا من شتائمها المحفوظة .. واخرى جديدة لاذعة ابتكرتها لهذه المناسبة وحاولت جهدها ان تعلم اين وكيف اضاع القطعة النقدية ، ولكنه انكر عليها مصيرها انكاراً ابكم لا عهد لها ولا له بمثله .. وفاضت دموعه فبكى بحرقة وهو يندس في فراشه ، ويتوارى تحت لحافه ، وهو يقسم في سره الايمان المغلظة بأن يقاطع محموداً الى الأبد .. ولا يعود الى ملاعبته ولا الدفاع عنه ضد غلمان الحي .. وما هي الا لحظات حتى راح في غمرة الاحلام ..

ولكن ما اشد دهشته حين احس بيد امه الرفيقة تنبهه من رقاده .. فاعتدل في فراشه ، فرأى امه في ثياب زاهية ، ورأى شعرها جميلا منسقاً ، ورأى شمس الصباح الباسمة تدخل القبو المظلم لأول مرة في حياته .. كما رأى القبو مشرقاً منسقاً ..

وقالت امه تخاطبه بصوت كريم لم يسمعه منها منذ سنوات .. بل لعله لم يسمعه منها ابداً .

– قم يا عزيزي فاليوم عيد .. قم فارتد ثوبك وحذاءك الجديد واحتفل بالعيد السعيد مع اترابك من صبيان الحي .. قم وانظر ما هيأت لك ..

ونظر فاذا بجانبه الثوب الجديد الذي كان قد تمناه عليها . فابتهج عليه فمزق ثوبه املا في شرائه .. ورأى حذاء اسود لامعاً بجانبه ، وقام فارتدى ثوبه وحذاءه وهو لا يصدق اذنيه ولا عينيه ولا حواسه جميعاً.. وقامت امه الى ركنها الذي تخبىء فيه النقود فاحضرت له الليرتين اللتين جلبهما لها امس ، ودفعتهما بين يديه وهي تحدثه بصوت ارق واكرم :

– وخذ هذه النقود فاشتر بها ما طاب لك من الحلوى .. واني اعوضك بها عن قطعتك الفضية التي زعمت انك اضعتها بالأمس .. انك لم تفقدها يالعين .. فحدثني حديثك ، فلم انقم عليك .. لم اغضب .. كلا بل حمدت صنيعك ، واثنيت عليه .. قم والعب مع اترابك واشتر من الحلوى ما تشاء .. وكله امام محمود اللعين .. ودعه يتميز من الغيظ والألم ما يشاء ..

ولقفز الليرتين اللامعتين ، ووثب من القبو كهر مطارد ، بثوبه الجديد . وحذائه اللامع ، ونقوده الهائلة .. ولم يبصر احداً من معارفه في طول الشوارع وعرضها .. اين محمود .. اين الأقرع .. اين هزامو .. اين وليد .. اين المدلل ؟ .. آه .. انهم عند بائع الحلوى ولا ريب .. فاليوم عيد .. وكلهم قد تناولوا من اهليهم وذويهم النقود الوفيرة .. ومضوا الى بائع الحلوى وبائع المفرقعات ، يشترون .. ويتبارون .. ويتباهون ! اما هو فان ثوبه انق .. وان حذاءه اجمل .. وان نقوده لا يحلم بمثلها انسان ..

وقبل ان يدرك حانوت بائع الحلوى ، وقريباً من المكان الذي كانت تجلس فيه السائلة المسكينة بالأمس ، اخذت عينه داراً جميلة مشرقة ، كان يمر بها في طريقه الى السوق ، في بعض الأحيان ، فيبهره اتساع صحنها ، واشراق ارجائها ، ونضرة زهرها ، ولا يجرؤ على التطلع الى داخلها خشية ان يروه فينهروه .. اما الآن .. فهي مفتوحة الباب على المصراعين .. وجماعات من الأطفال .. اطفال الحي .. وغيرهم كثير .. في ثياب جديدة متحلقين حول موائد كثيرة امتدت في ارجاء الدار ونسقت فوقها اكداس من الحلوى الشهية .. والتفت اليه اترابه فرأوه .. فخفوا للقائه مرحبين ، وادخلوه في حلقتهم مهللين .. ودعوه الى تناول قطع الحلوى .. ولكن ليس الآن .. انما حين تقبل السيدة الكريمة التي دعتهم الى هذه الوليمة الحافلة .. وصاح صوت من الداخل :

– الآن .. وقد اقبلت مضيفتكم الكريمة ايها الاطفال، فتستطيعون ان تأكلوا ما تشاءون وبغير حساب ..

وانقضت الايدي الصغيرة على اطباق الحلوى .. وارتفع اللغط كزقزقة العصافير اهازجة على السرحة القديمة عند المساء .. وقبل ان يمد يده الى مثل قطعة الحلوى التي كان قد اشتهاها بالأمس .. تقدمت منه السيدة المضيفة ، فاذا هي سائلة الأمس بعينها ، ولكنها اليوم غنية سنية ذات جلال وجمال .. واذا هي تمد يدها الى قطعة الحلوى التي هم بها ، فتقدمها اليه بصوت رؤوم لم يسمعه قبلها من انسان :

– خذ يا عزيزي هذه القطعة الشهية فكلها هنيئاً وكل كثيراً غيرها اذا شئت .. لقد اكرمتني بالأمس فحق علي ان اكرمك اليوم .. وكل يوم .. انك لن تعود الى القبو المظلم بعد اليوم .. انك ستبقى لتعيش معي هنا.. الا تعجبك هذه الدار .. انها مثوى المحرومين .. وانها مثوى المخلصين وانها لنعم عقبى الدار ..

حلب

مظفر سلطان

دراسات ادبية

من لبنان

محاولات في فهم الادب : للطفي حيدر

الفصول الاربعة : لعمر فاخوري

زوبعة الدهور : لمارون عبود

الرؤوس : لمارون عبود

الحجاج طاغية العرب : لعبد اللطيف شراره

نقد الشعر في الادب العربي : لنسيب عازار

دار المكشوف – بيروت